

بسم الله الرحمن الرحيم

(رسالة في فلسفة الأخلاق)

"الأخلاق والسير في مداواة النفوس"

الإمام ابن حزم الأندلسي (ت: 456هـ)

الإمام ابن حزم هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، ولد بقرطبة بالجانب الشرقي في ربيع منية المغيرة، آخر ليلة من شهر رمضان عام 384هـ، في بيت والده الوزير أحمد ابن سعيد، وكان قد مضى عليه ثلاث سنوات في وزارة الحاجب المنصور بن أبي عامر. وتحدثنا المصادر أن والده الوزير كان من أهل العلم والرواية، ويتردد اسمه في شيوخ كثير من علماء قرطبة. أما أمه فقد سكتت المصادر عن ذكرها، وربما أنه لم يعرف أمه معرفة واعية في طفولته. ومهما يكن من أمر فقد عاش ابن حزم طفولته الأولى في قصر أبيه بضاحية من ضواحي قرطبة هي الزاهرة، بين مظاهر الترف وألوان الجمال، تسيطر عليه في الوقت نفسه رقابة متشددة وضوابط دينية وخلقية رفيعة. ويحدثنا ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة" عن تربيته الأولى، في دائرة الحریم حيث رُبي في حورهن، ونشأ بين أيديهن ولم يعرف غيرهن، فيقول: "ولم أعرف غيرهن، ولا جالسُ الرجال إلا وأنا في حدّ الشباب، وحين تقبّل وجهي، وهن علمني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار، ودريني في الخط...".<sup>(1)</sup>

ومن الواضح أن ابن حزم قد نال قسطاً مهماً من الثقافة بإشراف والده في المرحلة الأولى من مراحل التعليم التي تنتهي في حوالي السن الثانية عشرة، إذ يبدأ "تقبّل الوجه"، وبعدها تبدأ مرحلة طلب العلم وفق المناهج التربوية الإسلامية في الأندلس والمغرب كما هو في المشرق. ويبدو أن والده الوزير بدأ يصطحبه بعد ذلك إلى المجالس العامة.

إن حضوره لأول مرة مجلس المظفر بن أبي عامر بصحبة والده الوزير، ولمّا يتجاوز الثانية عشرة من عمره، كان له أثر كبير في نفسه، وكان ذلك في يوم عيد الفطر سنة (396هـ)، ونحن نستشف من هذه الرواية التي نقلها إلينا تلميذه الحميدي<sup>(2)</sup> المستوى الثقافي واللغوي الذي ناله ابن حزم في مرحلة الطفولة. وقد سمع في ذلك المجلس أبا العلاء صاعد بن الحسن ينشد قصيدته التي مطلعها:

1. ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، القاهرة/ ص 50.

2. الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، القاهرة،

إليك حدودُ ناجية الرّكاب      محمّلةً أمانني كالهضاب

ولمّا رأى أبو العلاء صاعد هذا الطفل يصغي إلى قصيدته، إصغاء استحسانٍ وتذوق، كتبها له بخط يده وأنفذها إليه.

وكان والده من أوائل شيوخه، وبقي متأثراً بشخصيته طيلة حياته، وكثيراً ما نجد أبا محمد يحدث عن أبيه فيما يرويّه. فقد عاش طفولة مترفة ناعمة في أجواء من الترف والفكر والعلم.

وبعد السنة الثانية عشرة، من عمره، بدأت مرحلة "طلب العلم"، وهي مرحلة التلقّي المنظم عن شيوخ الأدب والسماع من أئمة العلم، فبدأ يتلقى الحديث، ولعلّه أول علم تلقاه بعد حفظ القرآن الكريم، وتهذيب اللسان برواية الأشعار، وذلك على يدي المحدث المعروف أبي عمر أحمد بن محمد بن الجسور سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وسمع من عدد كبير من مشاهير المحدثين والزهاد والقضاة. فقد عكف على دراسة الحديث بقرطبة إبان الاضطرابات السياسية، على مشاهير المحدثين بقرطبة في مجالسهم بالرصافة وفي المسجد الجامع بقرطبة، وفي مسجد القمري بالجانب الغربي من قرطبة عام 401هـ، أي في خضمّ الفتنة، وحضر مجالس العلم في غيرها من مراكز الإشعاع الثقافي بقرطبة، على مقربة من مكتبة الخليفة الحكم الثاني (ت: 366 هـ) الشهيرة في ضاحية الزهراء بقرطبة، وقد بلغ عدد فهرسها أربعاً وأربعين كراساً، أي في حوالي نصف مليون كتاب... ومما له دلالاته، إشارته إلى تعلمه الفقه وأنه بدأ دراسة "الموطأ" على الفقيه أبي عبد الله بن دحون في حوالي 410هـ أي في سن السادسة والعشرين أي بعد عودته إلى قرطبة، وتتابع قراءته عليه وعلى غيره ثلاثة أعوام ثم "بدأ المناظرة".

وقد عني أبو محمد إلى جانب دراسة الحديث والفقه بدراسة اللغة والنحو والشعر والجدل والكلام وبدراسة الفلسفة والمنطق. وكان شيخه في المنطق والفلسفة محمد بن الحسن المذحجي القرطبي المعروف بابن الكتاني، ونوّه بكتبه في الطب، كما نوّه برسائله في الفلسفة، فقال: "وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن، فائقة الجودة عظيمة المنفعة..." وكانت له عناية متميزة بدراسة الأديان...

إن ابن حزم ذو علم غزير وثقافة واسعة تشمل أنواع المعارف، وكان إلى ذلك عميق النظر حرّ التفكير دقيق الملاحظة، بعيداً عن الخرافات والأوهام، ويصفه ابن حيان، فيقول: كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه ونسب وجدل، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع

المشاركة في كثيرٍ من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة.

كان ابن حزم ذا شخصية مستقلة وتفكير إنساني رائع يتجلى في موقفه من الأرقاء واعتداده بآدميتهم، وتفريقه بين الحق والعقوبة، معتمداً على قوله سبحانه وتعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً"<sup>(1)</sup>، فإن المُلكية ثابتة للآدميين، بحق الآدمية، وتنظّمها الشرائع، وأن المُلكية هي حظ الإنسانية.

وفي مجال الفلسفة كانت له نظريات قيّمة، لا سيما في "نظرية المعرفة" وفي "فلسفة الأخلاق"، وفي فكره وفلسفته ينطلق من إيمانٍ عميق بالله سبحانه وتعالى، والالتزام بأحكام القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف إلى جانب ما تتصف به شخصيته من زهدٍ وورع، وإن فكره وفلسفته في جميع مصنّفاته تنبثق عن هذا الإيمان، حيث يقول: "وإذا تيقننا أن الدنيا ليست دار قرار، ولكنها دار ابتلاء واختبار ومجازٍ إلى دار الخلود، وصحّ بذلك أنه لا فائدة في الدنيا وفي الكون فيها إلا العلم بما أمر به عز وجل وتعليمه أهل الجهل"، إلى أن يقول: "وأن كل ما تبشره إليه النفوس الجاهلية من غرضٍ خسيس، خطأ، إلا ما قصد به إظهار العدل وقمع الزور، والحكم بأمر الله تعالى وبأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وإحياء سنن الخلق، وإماتة طوابع الجور"<sup>(4)</sup>.

فالعقيدة الإسلامية، بجوهرها في نظر ابن حزم، ممثلة بالقرآن والسنة، هي القاعدة لكل حياة إنسانية حقيقية، وأن اللجوء إلى الله - سبحانه وتعالى - هو الملاذ الوحيد للخلاص من الرذائل كما رآها تسود في زمانه. وقد عاش ابن حزم هذه العقيدة، وتمثلها في حياته بجميع قوى وجوده، عاشقاً للحقيقة، سالكاً طريق العرفان، في فلسفة حزمية بطابعها الصوفي. وقد استطاع ابن حزم الفيلسوف الأخلاقي أن يتمثل حصيلة معارفه الإنسانية وتجاربه الحياتية، وذلك بوضع فلسفة أخلاقية عربية إسلامية تعالج حياة الإنسان في حياته العملية، فألف كتابه "الأخلاق والسير في مداواة النفوس"، وقد نهج فيه منهجاً أصيلاً ومبدعاً يميزه عن فلاسفة الأخلاق المسلمين الآخرين، مثل الكندي الذي وطّن الفلسفة، جاعلاً إياها نوعاً من خادم للحقيقة، والفارابي مؤسس فلسفة الأخلاق الإسلامية المتوفى بدمشق 339 هـ في كتابه

1. البقرة: 29.

2. المقري، أحمد، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج1-20

مصر، 1355هـ- 1936م، ج4، ص168.

3. المصدر نفسه، القسم الأول- المجلد الأول، القاهرة 1358هـ- 1939، ص140.

4. ابن حزم، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، الأحكام في أصول الأحكام، ج1-8، مصر ج1 ص8.

"التنبية على سبيل السعادة"، وكذلك عن معاصريه ابن سينا (ت: 428 هـ) و"مسكويه (ت: 421 هـ) الفيلسوف العربي الإسلامي صاحب كتاب "تهذيب الأخلاق".

ويبدو لنا أن ابن حزم كتب هذه الرسالة في أخريات حياته، فهي ثمرة سني نضوجه، وتجارب حياة سياسية وفكرية عاصفة، ضمّنها نتائج دراساته العميقة وملاحظاته الحيّة لشؤون الناس وتصرفاتهم، نافذاً إلى طبيعة سلوك الإنسان وحياته النفسية. وقد حدّد غرضه من هذه الرسالة والجمهور الذي يخاطبه، بصورة واضحة ودقيقة منذ البداية، فيقول: "أما بعد، فإنني جمعتُ في كتابي هذا معاني كثيرة، أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور الأيام وتعاقب الأحوال، بما منحني - عزّ وجل - من التهمّم بتصاريف الزمان والأشراف على أحواله، حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس، وعلى الازدياد من فضول المال، وزممتُ كلَّ ما سيرتُ من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله - تعالى - به من يشاء من عباده، ممن يصل إليه، بما أتعبتُ فيه نفسي، وأجهدتها فيه، وأطلت فيه فكري، فيأخذه عفواً، وأهديته إليه هنيئاً، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال، وعقد الأملاك، إذا تدبّره ويسّره الله تعالى لاستعماله، وأنا راجٍ في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر لنيّتي في نفع عباده، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم، ومداواة علل نفوسهم، وبالله أستعين"<sup>(1)</sup>.

فقد حدد ابن حزم، منذ البداية أهدافه في فلسفته الأخلاقية، وأن الإنسان في حياته العملية هو غايته، وذلك بإصلاح ما فسد من أخلاق عباد الله عامتهم وخاصتهم، في مجتمع يعجُ بالمتناقضات والصراعات الاجتماعية والفكرية والسياسية. وأن مدى نجاحه في تحقيق هذه الأهداف، يكمنُ في من يتأمل هذا الفكر، تأمل إفادة واستعمال، أي تأملاً نظرياً وعملياً في الحياة الخاصة والعامة. وقد عاش ابن حزم نفسه، مبادئه العقائدية وفلسفته الأخلاقية.

ومما يجدر ملاحظته في منهج ابن حزم، في فلسفته الأخلاقية، أنه يصدر في ذلك عن إيمان عميق، وأن مرجعه الأساسي هو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، في تحليل النفس الإنسانية والولوج فيها إلى قوى النفس وعلومها. ففي مقالته الأولى حول مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق، يقول: "إذا تعقّبت الأمور كلها فسدت عليك، وانتهيت في آخر فكرتك، باضمحلال جميع أحوال الدنيا، إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للأخرة فقط، لأن كلَّ أملٍ ظفرت به فعقباه حزن، إمّا بذهابه عنك، وإمّا بذهابك عنه، ولا بد من أحد هذين الشيين، إلا

1. ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، الطبعة الثانية، بيروت، 1405 هـ - 1985م/ص 11-12

العمل لله - عز وجل - فعقابه على كل حال سرور في عاجل وآجل<sup>(1)</sup>. فإنه يشير إلى قوله تعالى: "تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"<sup>(2)</sup>. ويشير ابن حزم إلى العلم الرفيع الذي قاده إليه فكره واجتهاده وتأملاته في الحياة، وحالة الكشف عن هذا السرِّ العجيب، فيقول: "لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله - عز وجل - وفي دعاءٍ إلى حقٍّ، وفي حماية الحريم، وفي دفع هوانٍ لم يوجبه عليك خالفكُ تعالى، وفي نصر مظلوم. وبإذل نفسه في عرض دنيا، كبائع الياقوت بالحصي"، ويخلص من ذلك إلى تقرير قاعدة خلقية تشكل أحد أركان فلسفته الأخلاقية، فيقول: "لا مروءة لمن لا دين له". فابن حزم ينظر بمقولته هذه إلى حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - "كرم المؤمن تقواه، ودينه حسبه، ومروءته خلقه"<sup>(3)</sup> والأمثلة على ذلك كثيرة لمن أراد أن يستقصيها.

يتأمل ابن حزم حياة الإنسان، وهنا ينظر في النفس الإنسانية من حيث طبيعتها، خارج الأجناس والألوان والعقائد، وخارج الزمان والمكان، ليحدد الغرض الجامع، فيقول: "تَطَلَّبْتُ غرضاً يستوي الناسُ كلُّهم في استحسانه وفي طلبه، فلم أجده إلا واحداً، وهو "طَرْدُ الهَمِّ"، فلَمَّا تدبرته، علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم، لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد الهَمِّ، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به أزاحته من أنفسهم، فَمَنْ مخطئٌ وَجْه سبيله، وَمِنْ مقاربٌ للخطأ، وَمَنْ مصيبٌ، وهو الأقلُّ من الناس، في الأقل من أموره". إنه يتحدث عن الإنسان عامة منذ وجوده على هذا الكوكب، فيقول: "فطرد الهَمِّ مذهب قد اتفقت الأمم -مذُ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء، ويعاقبه على الحساب- على أن لا يعتمدوا بسعيهم شيئاً سواه".

ويرى ابن حزم الفيلسوف أن هذا هو الغرض الوحيد الذي يجمع عليه البشر، وما عداه فإنه موضوع خلافٍ واختلاف، إذ يقول: "وكل غرضٍ غيره، ففي الناس مَنْ لا يستحسنه، إذ في الناس مَنْ لا دين له، فلا يعمل للآخرة، وفي الناس من أهل الشرِّ مَنْ لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحقَّ، وفي الناس من يؤثر الخمول، بهواه وإرادته، على بعد الصيت، وفي الناس مَنْ لا يريد المال، ويؤثر عدمه على وجوده، ككثيرٍ من الأنبياء - عليهم السلام - وَمَنْ تلاهم من الزهَّاد والفلاسفة. وفي الناس مَنْ يَبْغُضُ اللذات بطبعه، ويستنقص طالبها، وَمَنْ هم كما ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه، وفي الناس مَنْ يؤثر الجهل على العلم "كأكثر من ترى

1. ابن حزم، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، الطبعة الثانية، بيروت، 1405 هـ - 1985 م، ص 13.

2. سورة الأنفال، الآية (67).

3. الإمام مالك ابن أنس، الموطأ، باب الجهاد.

من العامة". ويرى ابن حزم نتيجة تأملاته أنه قد أتى على تعداد الأغراض الإنسانية جميعها، فيقول: "وهذه أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها." (1) ونحن في هذا النص أمام تحليل نفسي عميق للنوازع الإنسانية وأغراضها في الحياة، ويخلص إلى القول: "وليس في العالم - مذ كان إلى أن يتناهى - أحدٌ يستحسن الهمَّ ولا يريد طرده عن نفسه" ويطلق على هذه الحقيقة ما يسميه "العُلمَ الرِّفيع"، و "السِّرَّ العجيب" الذي توصل إليه عن طريق الكشف والعرفان وهو نورٌ من الله سبحانه وتعالى.

إن ابن حزم الباحث عن "الحقيقة"، لا يتوقف عند كيانها النظري في فلسفته النفسية والأخلاقية، ولكن ينتقل إلى البحث كما يقول: "عن سبيل موصلة - على الحقيقة - إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس، الذي اتفق جميع أنواع الإنسان، الجاهل منهم والعالم، والصالح والطالح، على السعي له، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله - عز وجل - بالعمل للآخرة" (2). فابن حزم يتحدث عن الإنسان من حيث هو مخلوق بشري، منذ بدء الخليقة إلى أن يتناهى، ويستعرض أغراضه في الحياة، ومختلف مطالبه ومقاصده، وأن جميعها على حدِّ قوله: " لا بد لها من عوارض تعرض في خلالها، وتعدُّر ما يتعدُّر منها، وذهاب ما يوجد منها، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة" (3). ويشير كذلك إلى ما ينتج بالحصول عليها من نتائج سيئة. ويخلص من ذلك كله إلى أنه وجد أن العمل للآخرة - سالماً من كل عيب، خالصاً من كل كدر - هو على حد تعبيره: "الموصل إلى طرد الهمَّ على الحقيقة"، وأنه "ما عدا هذا فضلال وسُخف" (4)

وقد مهد ابن حزم لمقولته هذه بالحديث عن اللذة وأنواعها، وميِّز بين اللذات النفسية التي يتسامى بها المفهوم الإنساني، واللذات الحسيَّة التي تعمُّ بني البشر وتتفاوت من حيث القوة والعظمة، فيقول: "لذة العاقل بتمييزه، ولذة العالم بعلمه، ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله - عز وجل - باجتهاده، أعظم من لذة الآكل بأكله والشارب بشربه..."، ويبرهن على مقولته بأن الحكيم والعاقل والعالم واجدون لسائر اللذات التي سمَّاها، كما يجدها المنهمكُ فيها، ويحسُّونها كما يحسُّها المقبل عليها، وقد تركوها وأعرضوا عنها، وآثروا طلب الفضائل

1. ابن حزم، الأخلاق والسير، ص14.

2. المصدر نفسه، ص14.

3. المصدر نفسه، ص15.

4. ابن حزم، الأخلاق والسير، ص15-16.

عليها. ولا شك أنه يشير إلى تجربة شخصية، وإلى مرحلتي حياته، عندما يقول: "إنما يحكم في الشينين مَنْ عرفهما لا مَنْ عرف أحدهما ولم يعرف الآخر"<sup>(1)</sup>

وضع ابن حزم كتابه "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" في فقرات، وعلى منهج الإشارات والتنبيهات، وصنّفها حول موضوعات جامعة وهي: مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق، والعقل والراحة، والعلم، والأخلاق والسير، والأخوان والصدّاقة والنصيحة، والمحبة وأنواعها، والأخلاق والعادات، وأدواء الأخلاق الفاسدة ومداواتها، وغرائب أخلاق النفس، وتطلع النفس إلى ما يُستتر عنها من كلام مسموع أو شيء مرئي أو إلى المدح ويقاء الذكر. ويختم تصنيفه هذا بموضوع "حضور مجالس العلم".

وستوقف في هذا البحث عند بعض إشاراته، في بعض هذه الموضوعات. ففي مقالته الثانية حول "العلم"، يعرّض ابن حزم بالدخلاء على العلم، وقد ذاق منهم المرّ على ما يبدو، وسلقهم بلسانه الحادّ، فيقول: "لا آفة على العلوم وأهلها أضّر من الدخلاء فيها، وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعملون، ويفسدون، ويقدرّون أنهم يصلحون". ويحدثنا عن هؤلاء، أهل الجهل، ومَنْ يقابلهم من أهل العلم، فيقول: "غاضني أهل الجهل مرتين من عمري: إحداهما بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي. والثانية: بسكوتهم عن الكلام بحضرتي، فهم أبداً ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم. وسرّني أهل العلم مرتين من عمري: إحداهما بتعليمي أيام جهلي، والثانية بمذاكرتي أيام علمي"<sup>(2)</sup>.

ومما له دلالاته في هذا النص، أن ابن حزم يطلق على المرحلة الأولى من حياته "أيام الجهل" وأحياناً "بالجاهلية" وهي أيام الوزارة والجاه، مع أنها هي أيام تكوينه الثقافي والعلمي والفقهية، بل وبدء نضوجه العلمي، إذ درس "الموطأ" للإمام مالك وهو ابن ستٍ وعشرين سنة على مدى ثلاث سنوات. فقد شاعت الظروف أن يعيش ابن حزم منذ الخامسة عشرة من عمره أشد الفتن والاضطرابات السياسية التي اجتاحت الأندلس، وخاض غمارها السياسي إلى جانب بني أمية وسجن، وفاءً منه واعتقاداً بأنّ "الخلافة" الأموية القوية وحدها هي القادرة على حماية وحدة الأندلس (أسبانيا الإسلامية) وتألّق الحضارة العربية الإسلامية فيها. وكان آخر الأمر وزيراً للخليفة هشام المعتد بالله الذي أطيح به في ذي القعدة سنة 422هـ، إذ انتهت رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية.

1. ابن حزم، الأخلاق والسير، ص13.

2. المصدر نفسه، ص24.

وصاغ ابن حزم تجربته السياسية هذه في مفهوم فلسفي، حيث يقول: "تَوَارُ الفتنة لا يَغْفِدُ"<sup>(1)</sup> وقد فتَّ اليأس في عضده ونبذ الحياة السياسية وهو في حوالي الثامنة والثلاثين من عمره، وعكف على العمل الثقافي وقراءة العلوم وتقييد الآثار والسُّنن وانقطع في عزلته إلى التأليف والتدريس، وقد سمَّى هذه المرحلة من حياته التي يعتز بها "بأيام العلم". ومن الواضح أن مفهوم "أيام الجهل" عند ابن حزم له دلالة خاصة، وأنه لا يعني في مدلوله نقيض المعرفة والعلم. وهو في هذا النص أيضاً يوجه نقداً لاذعاً لهذا النوع من "الدخلاء على العلم".

وفي حديثه عن العلم وفوائده نستشف تجربته الحياتية، وقد رأى دولة الخلافة في الأندلس تتناثر إلى دويلات طائفية وإقليمية (ملوك الطوائف)، في قوله: لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به، إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوسواس المُضنِّية، ومطرح الآمال التي لا تفيد غير الهَمِّ وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس، لكان ذلك أعظم داعٍ له.

وتحتل قيمة "العدل" وقيمة "الحق"، مكانة أساسية في فلسفته الأخلاقية؛ إذ يفيد أن أفضل نعم الله على المرء، أن يطبعه على العدل وحبِّه، وعلى الحق وإيثاره. وأما من طُبِعَ على الجور واستسهاله، وعلى الظلم واستخفافه، فلييأس من أن يُصلح نفسه أو يقوِّم طباعه أبداً، وليَعْلَمْ أنه لا يفلح في دين ولا في خلق محمود.<sup>(2)</sup> وإن تأمله في النفس الإنسانية ونوازعها، وطبيعتها وجودها تقوده إلى القول بأنه "لا يخلو مخلوق من عيب"، وأن السعيد من البشر هو مَنْ قَلَّتْ عيوبه ودقَّتْ، وهيئات أن يعلم الناقص نقصه، فلو علم ذلك لكان كاملاً.<sup>(3)</sup>

وربما كان من المفيد أن نتوقف عند بعض الفقرات أو الإشارات والتنبيهات في مقالته الرابعة المعنونة بـ"الأخلاق والسير"، حيث ينفذ ابن حزم إلى أعماق النفس الإنسانية، فيحلل الأسباب والبواعث، ويستكشف مداخلها إلى الشرِّ من خلال تأملاته الفكرية وتجاربه الحياتية في إطار فلسفة أخلاقية عربية إسلامية، فلا يجد أقبح ولا أحمق من اعتذار من أساء بأن فلاناً أساء قبله، وأن يستسهل الإنسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس، أو أن يسيء في وجه ما، لأنه قد أساء في غيره. وأن هذه من وسائل إبليس، أصبحت عذراً للشر ومدخلاً له، "في حدِّ ما يُعرف ويحمل ولا يُنكر"<sup>(4)</sup>. ونحن نجد أصداء كتابه "طوق الحمامة في الألف والألاف"، في حديثه عن دقائق مشاعره ونوازعه النفسية في مقالته "الأخلاق والسير"، وذلك

1. ابن حزم، الأخلاق والسير، ص33.

2. المصدر نفسه، ص37.

3. المصدر نفسه، ص38.

4. ابن حزم، الأخلاق والسير، ص31.



عندما يتحدث عن عيوب نفسه الظاهرة والخفية، وكيف أنه استطاع علاجها ومداواتها، ويتوقف عند عيبين، على حدّ تعبيره: "قد سترهما الله تعالى وأعان على مقاومتها، وأعان بلطفه عليهما، فذهب أحدهما البتة، والله الحمد، وكأنّ السعادة كانت موكّلةً بي، فإذا لاح منه طالع قصدت طمسه، وطاولني الثاني منهما، فكان إذا ثارت منه مُدوده نَبَضَتْ عروقه، فيكاد يظهر، ثم يسّر الله تعالى فدّعه بضروب من لطفه تعالى، حتى أخلد..."<sup>(1)</sup>

فالإمام ابن حزم، الفيلسوف النفسي الذي يتحدث عن دقائق حياته الخاصة في مرحلة الشباب في كتابه "طوق الحمامة"، نراه يتوقف عند عيوبها للبحث في مداواتها من خلال السّير ووقائع الحياة، ومن خلال المفاهيم الأخلاقية، ولكنه في هذه المرة لا يكشف عن عيبين، على حدّ تعبيره، ويكتفي بالقول: "سترهما الله تعالى وأعان على مقاومتها". وإنّ المتأمل في هذا القول، يلمس كيف أن الإسلام عقيدة، يتمازج مع علم النفس معرفةً وفلسفةً، في إرساء قواعد أخلاقية عربية إسلامية وإنسانية، يكون هدفها مداواة النفوس وإصلاحها وتنمية القيم الأخلاقية السامية. وإن الإطار الإسلامي الذي يتخذ من القرآن الكريم مصدراً ومن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى، لِيَتَجَلَّى في جميع جوانب تصانيفه ومؤلفاته وأفكاره. وفي هذا المثال من حياته الخاصة نشير إلى أن العيوب الشخصية التي سترها الله تعالى، أو أمر بسترها، لا يجوز لكائن بشري أن يكشفها، ولكنه مدعو لبذل الطاقة في مقاومتها مستعيناً بالله سبحانه وتعالى. فالعيبان اللذان تحدث عنهما، ولم يكشفهما؛ قد أعان الله على مقاومتها، وأنه لم يتوقف عند حد المقاومة وبذل الطاقة، ولكن ليخبرنا بأنّ الله - سبحانه وتعالى - "قد أعان بلطفه عليهما، فذهب أحدهما البتة والحمد لله... وطاوله الثاني منهما... ثم يسّر الله تعالى فدّعه بضروب من لطفه تعالى، حتى أخلد..."

وابن حزم واضح في تحديد مصادره، فإلى جانب اطلاعه على تعاليم الأنبياء - صلوات الله عليهم - يذكر اطلاعه على "نتاج الأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وآداب النفس".<sup>(2)</sup>

ويتأمل ابن حزم مفاهيم الموت والحياة، تأملاً طويلاً، وتبقى هذه المفاهيم تشغل فكره طويلاً. ويتوقف عند الجسد والروح، وعند الجسد والنفس، وأن النفس تأنس بالنفس في حين أن الجسد مُسْتَنْقَل مَهْرُوم به، ويدلل على ذلك بـ "استعجال المرء بدفن جسد حبيبه إذا فارقتة

1. المصدر نفسه، ص34.

2. ابن حزم، الأخلاق والسير ، ص33.

نفسه، وأسفه لذهاب النفس، وإن كانت الجثة حاضرة بين يديه".<sup>(1)</sup> إن هذا المفهوم ليذكرنا بمفهوم النفس عند مسكويه (ت: 421هـ)، معاصر ابن حزم، في كتابه "تهذيب الأخلاق"، حيث يعرف النفس بأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً، وأنها تباين الجسم وتفضله.<sup>(2)</sup> وفي الوقت نفسه، فإن حديثه عن الأنس، ليذكرنا أيضاً بحديث مسكويه، أيضاً بأن الأنس هو مبدأ المحبة وتنمية الشريعة، وأن الإنسان آنس بالطبع وليس بوحشي ولا نفور، ومنه اشتق اسم الإنسان باللغة العربية، وأن هذا الإنس الطبيعي في الإنسان هو الذي ينبغي أن نحرص عليه ونكتسبه مع أبناء جنسنا "وأنه مبدأ المحبات كلها".<sup>(3)</sup>

وينحو ابن حزم الفيلسوف الأخلاقي إلى الحديث عن المفاهيم وأنواع الفضائل وتحديدها، فيعرف مثلاً فضيلة العدل بقوله: "حدُّ العدل أن تعطي من نفسك الواجب وتأخذه، وحدُّ الجور أن تأخذه ولا تعطيه،"<sup>(4)</sup> ويعرف مفهوم الكرم، بقوله: "وحدُّ الكرم أن تعطي من نفسك الحقَّ طائعاً، وتتجافى عن حقك لغيرك قادراً، وهو فضل أيضاً." ويخلص من ذلك إلى تركيب مقولة منطقية بأن "كل جود كرم وفضل، وليس كل كرم وفضل جوداً". فالفضل أعمُّ والجود أخصُّ، إذ الحلم فضلٌ وليس جوداً.<sup>(5)</sup> وينهي ابن حزم "الجدليَّ الكلاميَّ" هذه القضية بقاعدة فقهية في تعريفه الفضل بقوله: "والفضل فرض زدت عليه نافلة".<sup>(6)</sup>

وفي مقالة ابن حزم الفيلسوف الأخلاقي عن الإخوان والصدقة والنصيحة، نراه، كما هو شأنه في كتابيه "السير والأخلاق" و "طوق الحمامة"، يغوص في أعماق النفس الإنسانية محللاً سلوكها وتصرفاتها ودوافعها، في أجواء من الروابط الاجتماعية، واستتناس النفس بالنفس. ويعرف الصداقة بقوله: "حدُّ الصداقة الذي يدور على طرفي محدوده، هو أن يكون المرء يسوؤه ما يسوء الآخر، ويسره ما يسره، فما سَقَل عن هذا فليس صديقاً. وأنَّ أقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله لغير علةٍ توجب ذلك، وأثرك على مَنْ سواك. ونحن نلمس أن حياته فيما سمَّاه "أيام الجهل" أو "الجاهلية"، قد انعكست في تكوين مفاهيمه حول الصداقة والصديق ومخالطة الناس، إذ يقول: "ليس شيء من الفضائل أشبه بالردائل من الاستكثار من الإخوان والأصدقاء"، ويعلل هذه المقولة بأنهم لا يُكتسبون إلا

1. المصدر نفسه، ص30.

2. انظر: أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، تهذيب الأخلاق، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، 1966/ ص3-9.

3. المصدر نفسه، ص140-141.

4. ابن حزم، الأخلاق والسير، ص32.

5. المصدر نفسه، ص32.

6. المصدر نفسه.

بالحلم والجود والصبر والوفاء والاستضلاع والمشاركة والعفة وحسن الدفاع، وتعليم العلم وبكل حالة محمودة". ويستدرك على هذا القول بأنه لا يعني "الشاكزية والأتباع أيام الخُزمه" أي الحاشية والأتباع أيام النفوذ والسلطة، فيصنفهم بأنهم "لصوص الإخوان وخبث الأصدقاء" ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا. ولا يشمل عنده "مفهوم الأصدقاء"، أولئك المصادقين لبعض الأطماع، ولا المتنادمين على الخمر، والمجتمعين على المعاصي والقبائح، والمتآلفين على النئيل من أعراض الناس، والأخذ في الفضول، وما لا فائدة فيه، فهؤلاء ليسوا أصدقاء. وبعد أن يستعرض وجوه السلب فيمن ينزع عنه مفهوم الصداقة يقول: "وإنما نغني" إخوان الصفاء" لغير معنى إلا الله عز وجل، إمّا للتناصر على بعض الفضائل الجدية، وإمّا لنفس المحبة المجردة فقط. وإن عبارة "إخوان الصفا" لتذكرنا بالرسائل الفلسفية التي وضعها مجموعة من أصحاب الفكر والفلسفة في القرن الرابع الهجري تحت عنوان "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا".

ويفرق ابن حزم بين الصداقة والمعاملة، فإنه ينهى عن سوء المعاملة، مهما تكن الظروف؛ لئلا يلحق الإنسان: "بذوي الشرارة من الناس، وأهل الخب منهم".

ونحن إذ نرى ابن حزم في حديثه عن الصداقة والصديق حذراً متشككاً، يذكرنا بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، أبو حيان التوحيدي (ت: 379) في كتابه "الصداقة والصديق"، وأن المخالطة لا تعني الصداقة، ويحذر ابن حزم من امتحن بها بأن لا يُلقى بوجهه كله إلى مَنْ صحب... و "لا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه، وسوء معاملتهم؛ ونراه في الوقت نفسه عندما يتحدث عن مفهوم "المحبة" فيلسوفاً باحثاً في مفهوم "الحب"، ويرى أن درج المحبة في النفس الإنسانية خمسة:

أولها: الاستحسان الذي يدخل في باب التصديق، ثم الإعجاب به، وهو رغبة الناظر في المنظور إليه وفي قربه، ثم الألفة، وهي الوحشة إليه إذا غاب. ثم الكلف: وهو غلبة شغل البال به، وهذا النوع يُسمى في باب الغزل بالعشق. ثم الشَّغف، وهو امتناع النوم والأكل والشرب، إلا اليسير من ذلك، وربما أدى ذلك إلى المرض، أو إلى الوسواس، أو إلى الموت، وليس وراء هذا منزلة في تنامي المحبة أصلاً. (1) ويتحدث صاحب كتاب "طوق الحمامة"، عن تجربته الشخصية وتأملاته حول طبيعة العشق، فيقول: "كُنَّا نظن أن العشق في ذوات الحركة

1. ابن حزم، الأخلاق والسير، ص54.

والحدة من النساء أكثر، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك، وهو في الساكنة الحركات أكثر، ما لم يكن ذلك السكون بَلْهًا. (1)

فابن حزم الفيلسوف الأخلاقي المسلم هو عالم النفس الذي يحلل النفس الإنسانية ونوازعها بمنهج علمي يقوم جوهره على تجاربه الحياتية وتأملاته الفكرية. وقد يوغل ابن حزم الشاعر في الحديث عن الحب في إطار فلسفةٍ روحية، نستشف من خلالها "الرمزية" الصوفية، ويوغل في السير وراء خطاب المعقول الباطن، فيشير إلى قدرة الصور العجيبة على الوصل بين أجزاء النفوس النَّائية. ويذهب ابن حزم الشاعر بعيداً في إيغاله الصوفي في قصيدته التي يسميها بعض أصحابه "الإدراك المتوهم" ومنها:

فكيف تحدُّ اختلاف المعاني      ترى كلَّ ضدِّ به قائماً  
ويا عرضاً ثابتاً غير فانٍ      فيا أيها الجسمُ لا ذا جهات  
فما هو مذلت بالمستبان      نقضت علينا وجوه الكلام

فتراه يخاطب الجسم وقد جرّده عن الجهات، وأنه ذلك العَرَضُ الثابت الذي يَفْنَى. ويحلّق ابن حزم الشاعر الفيلسوف عند قمم التجريد الذهني في قصيدته التي منها:

أبْنُ لي فقد أزرى بتمييزي العيِّ      أمِنَ عَالَمِ الأَمْلاكِ أنتَ أم أنسي  
إذا أَعْمَلُ التَّفْكيرُ فالجرمُ علويُّ      أرى هيئَةً إنسيَّةً غير أنه  
على أنك النورُ الأنيقُ الطبيعيُّ      تبارك مَنْ سوَّى مذاهب خلقه  
إلينا مثال في النفوس اتصالي      ولا شكَّ عندي أنك الروح ساقه

وتتمازج فلسفة الأخلاق وعلم النفس وعالم الروح في فكر هذا الفيلسوف العربي الإسلامي المبدع الذي وصفه المقَرِّي في كتابه "فتح الطيب"، بأنه "تسيح وحده".

فالإمام أبو محمد علي بن حزم أديب وشاعر ومؤرخ ونسَّاب وفقيه وفيلسوف ومحدث، أحد عظماء الحضارة العربية الإسلامية، وقد عاش في أزهى عصورها في القرنين الرابع والخامس الهجريين. وحاولنا في هذا البحث أن نلقي ضوءاً على "فلسفته في الأخلاق ومداواة النفوس".

1. المصدر نفسه.

وإن الدارس المتأمل، يرى أن الفلسفة الأخلاقية، قد أهملت، في الدراسات الحديثة، سواء أكان في أوساط المستشرقين والعلماء الغربيين أم في أوساط الدارسين والباحثين العرب ولا شك أن ذلك أسبابه ونوازه.

ونحن ننظر إلى دراسة التراث بصورة عامة، من خلال أهميته العلمية والفكرية ومن حيث هو حلقة مهمة في مسيرة التاريخ العلمي والحضاري الإنساني، من ناحية، ومن ناحية أخرى باعتباره الرصيد الثقافي واللغوي والعلمي والفلسفي للأمة، للانطلاق إلى بناء حضارة علمية وفكرية وفلسفية مبدعة في العصر الحديث في إطار فلسفة عربية إسلامية أصيلة، ومنهج علمي نامٍ ومتطور، بعيداً عن التقليد الأعمى أو الإضافات التراكمية. فالنمو حياة تنبعث من التراث وتنمو وتزدهر في أجواء الحرية، أما التقليد والإضافات التراكمية، فهي تضخم لا حياة فيه ولا إبداع. وإن النظرة المعاصرة للتراث، لا تعني تشويبهه وإلباسه حلةً غير حلتته أو إقحامه في أطر مفاهيم وقيم غريبة، قد نشأت وتطورت في مجتمعاتٍ أخرى وفي بيئات مختلفة، وإنما تعني دراسة التراث دراسة علمية مستنيرة في إطار ما وصل إليه الفكر الإنساني الحديث في تقدمه، وبما وصلت إليه الحضارة الحديثة من تطور علمي وتقني، وفي إطار ثورة المعلومات وإرهاصاتها بالوقوف على أعتاب حضارة عالمية بدت بعض معالمها بالظهور، وما زالت خيوط نسيجها لمَّا تكتمل. وإنَّ دراسة الفلسفة الأخلاقية العربية الإسلامية، ذات خصوصية متميزة، من حيث جذورها التاريخية ومن حيث ازدهارها وتألقها العالمي الذي امتدَّ عبر التاريخ لعدة قرون. وأن الرؤية المعاصرة لفلسفة أخلاقية عربية إسلامية يجب أن تتجاوز حالة التشرذم الطائفي والإقليمي والسياسي من ناحية، والانبهار والتقليد الأعمى لقيم الأمم المتغلبة في العصر الحديث، ومبادئها ونظمها التربوية والتعليمية والسياسية والاجتماعية... وأن الرؤية المعاصرة تعني التطوير والإبداع والانبعاث الحي من الذات، وريادة آفاق الحياة الحديثة بكل أطيافها العلمية والثقافية والتربوية، من خلال مفاهيم وقيم أرسدت دعائمها عبر التاريخ فلسفة أخلاقية عربية إسلامية ثابتة من حيث منابعها الأولى في القرآن والسنة، ونامية ومتطورة من حيث الإرث الفكري عند الفلاسفة والزهاد والمتقدمين والمناظرين ومن حيث ظروف الحياة ومتطلباتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والتقنية، وبلسان عربي

مبين؛ إذ لا إبداع ولا مشاركة أصيلة في بناء الحضارة العالمية الحديثة إلا من خلال العربية  
السليمة (الفصيحة)، لغة الأمة الجامعة والموحدة.  
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس مجمع اللغة العربية الأردني  
الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

عمان في 29 شوال سنة 1430هـ  
الموافق 18 تشرين أول سنة 2009م.

## المصادر والمراجع

ابن بسام - أبو الحسن بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول-  
المجلد الأول، القاهرة، 1358هـ- 1939م.

ابن حزم- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (384هـ- 456هـ)، الأخلاق والسير في مداواة  
النفوس، الطبعة الثانية، بيروت، 1405هـ- 1985م.

ابن حزم- أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1-8، مصر.

ابن حزم- أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والألاف، القاهرة.

الحميدي- أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الحميدي، جذوة المتقرب في ذكر ولاية  
الأندلس، القاهرة.

خليفة- عبد الكريم، ابن حزم الأندلسي، حياته وأدبه، بيروت.

مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق، حققه قسطنطين زريق، نشر الجامعة  
الأمريكية، بيروت، 1966.

**ENCYCLOPPEDIE DE L'ISLAM NOUVELLE EDITION, LEYDE-  
PARIS, 1977.**